الإيجَـــــازُ
وأسْرارُهُ فِى القِـرَاءاتِ

بقلم
أ.د/ عبد الكريم إبراهيم صالح
استاذ التفسير وعلوم القرآن والقراءات بجامعة الأزهر
رئيس لجنة مراجعة المصحف بالأزهر الشريف

١٤٤١ هـ = ٢٠١٩ م

ملخص البحث

الإيجاز وأسراره فى القراءات

أ.د/ عبد الكريم إبراهيم صالح
استاذ التفسير وعلوم القرآن والقراءات بجامعة الأزهر
البريد الاليكتروني : AbdulKarimSaleh@Azhar.edu.eg

ملخص البحث

فمعلوم أن الإيجاز هو : وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة أقل منها، وافيـة بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح، وذلك بأن يكون اللفظ أقل من المعهود عادة مع وفائه بالمراد، وهو من الأساليب البليغة ؛ بل إن بعض العلماء عـدّوا البلاغة هي : الإيجاز.

" قال معاوية لصحار بن عياش العبدي وهو علامة نسابة : ما تعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز، قال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صحار : أن تجيب فلا تبطـئ، وتقول فلا تخطئ، قال له معاوية مستدركـًا عبارته، ألا تبطئ ولا تخطئ، وذكر في موضع آخر قول ابن الأعرابي : عن المفضل الضبي : قـلت لأعرابي منّـا : ما البلاغة ؟ قال : الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل " [١] .

والإيجاز في القراءات ناشئ من أن لكل قراءة دلالة واعتباراً، فاللفظ المقـروء بقراءتين يحمل دلالتين واعتبارين، ليسـا بقدر اللفظ ؛ ولكن تكون الدلالة الواحدة منهما بمقدار آية كاملة، والدلالات المترتبة على

---

(١) ينظر : البيان والتبيين للجاحظ (١ / ١٧) .

تعدد القراءات كلها معتبرة، ويتطلبها السياق والموقف.

وهو ما سأفصله – إن شاء الله تعالىٰ – فيما يلي :

أولاً : تمهيد يحتوي علىٰ تعريف الإيجاز وأهميته وأغراضه وعلاقته بالقراءات .

ثانياً : المبحث الأول من الإيجاز : قراءة حرف المضارعة بالياء والتاء .

ثالثاً : المبحث الثاني من الإيجاز : تغاير القراءات بين تخفيف عين الماضي أو المضارع وتشديدهما .

رابعاً : المبحث الثالث من الإيجاز : قراءة الفعل بالبناء للفاعل تارة وبالبناء للمفعول تارة أخرىٰ .

خامساً : المبحث الرابع من الإيجاز : تغاير القراءات بين تاء الخطاب وتاء المتكلم.

سادساً : المبحث الخامس من الإيجاز: تغاير القراءات بين تاء الخطاب وياء الغيبة.

سابعاً : الإيجاز وعلاقته بالاحتباك وأثر ذلك علىٰ القراءات .

ثامناً : الخاتمة وفيها أبين قيمة الإيجاز وعلاقته بالقراءات .

وسأتحدث عن ذلك بما يتسع له مقام البحوث العلمية المقدمة في الملتقيات والمؤتمرات العلمية؛ بما يوصل الفكرة ويوضحها، ويظهر معالمها لعلها تكون نواة لبحوث أفضل وتفاصيل أوسع .

والله الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل .

الكلمات المفتاحية : الايجاز – الاحتباك – القراءات القرآنية.

Brevity and its secrets in readings

Dr. Abdul Karim Ibrahim Saleh
Professor of Interpretation, Qur'anic Sciences and Readings at Al-Azhar University
E. Mail: AbdulKarimSaleh@Azhar.edu.eg

It is well known that the brevity is to put the many meanings in a few words less, and to fulfill the purpose intended with the expression and disclosure, by saying that the word is less than usual with its fulfilling of the intention, which is an eloquent method؛

"What are you going to do with the rhetoric?" said Maaouiya Sohar bin Ayash al-Abdi, a sign of a prophet. He said: Brevity, he said to him: What is the brevity? Sohar said: If you answer, don't slow down, and say, "Don't make a mistake," he said to him, telling him his words, "Don't slow down and don't make mistakes." He said, "Brevity is in a helplessness, and in the wrong." The summary in the readings arises from the fact that each reading has an indication and, in the words of two readings, carries two connotations and two considerations, not as much as the word, but the two indications are a complete verse, and the implications of the multiplicity of readings are all considered, and require sin and attitude .

This is what I will dismiss, hopefully, the following:

First: A preface that contains the definition of brevity and its importance and purposes and its relation to readings.

Secondly, the first topic of brevity is to read the letter "J" and "T ".

Thirdly, the second topic of the summary is the heterogeneity of readings between the lightness of the eye of the past or the present and the tightening of it.

Fourth: The third topic of the brevity: reading the act

by building the actor once and by building the effect again.

Fifth: The fourth topic of the brevity: the readings vary between the letter t and the speaker.

Sixth: The fifth topic of the brevity: the change of readings between the t of the speech and the absence.

Seventh: Brevity and its relation to the confusion and the impact on the readings.

Eighth: The conclusion in which i show the value of brevity and its relation to readings.

I will talk about this as well as the development of scientific research provided in scientific journals and scientific conferences to convey and clarify the idea, and to show its features, perhaps the nucleus of better research and wider details. God is the one who is good and guided to both the way.

Keywords: Brief - Protest - Qur'anic Readings

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وإحسانه تتنزل الرحمات، وبعبادته وتلاوة كتابه تدوم النعم والخيرات، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد الكائنات سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ذوي الفضائل والمكرمات .

وبعد ،،،

فإن الله عز وجل جعل لكل رسول من رسله الكرام معجزة يؤيده بها وتظهر صدق قوله، وأكرم نبينا محمداً ﷺ بمعجزات كثيرة أفضلها وأعظمها القرآن الكريم، فهو حجة الرسول الكريم ﷺ وآياته الكبرى، يقوم في فم الدنيا شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته، دليلاً على صدقه وأمانته، وهو ملاذ الدين الأعلى، يستند إليه الإسلام في عقائده، وعباداته، وحكمه وأحكامه، وآدابه وأخلاقه، وقصصه ومواعظه، وعلومه ومعارفه، من هنا فإن أولى ما عملت فيه القرائح، وعلقت به الأفكار واللواقح ؛ الفحص عن أسرار التنزيل، والكشف عن حقائق التأويل، الذي تقوم به المعالم، وإن خير ما صدقت من أجله الجهود، ووصل بسببه الليل والنهار، هو القرآن الكريم .

من هنا اهتم به علماء المسلمين اهتماماً بالغاً، حتى انبثقت منه كل فروع المعرفة الإسلامية ؛ علماً بأن البلغاء الفصحاء من العرب قد عجزوا فيما مضى عن الإتيان بمثل ما فيه من الجمل والأساليب، وسوف يظل غيرهم من أعداء الإسلام طوال الدهر عن هذا عاجزين، مما يدل على أن هذا الكتاب تنزيل

من لدن حكيم عليم .

ومن جوانب إعجازه – وما أكثرها – أننا نقرأ كثيراً من كلماته وجمله بوجوه مختلفة، وتظل الأحكام والمعاني مؤتلفة، فلا تجد تناقضاً في الأحكام، ولا تعارضاً في المعاني، وهذا إن دل فإنما يدل على أن تنوع القراءات على اللفظ الواحد وجه من وجوه الإعجاز ؛ فالقراءات القرآنية من الوسائل البارزة المحققة لإعجاز القرآن الكريم ؛ لاشتمالها على أوجه تعبيرية تحقق قمة المطابقة لمقتضى أحوال المخاطبين بأسلوب يتسم بالإيجاز .

من هنا : فإن الإمام السيوطي – رحمه الله – عدّ القراءات القرآنية وجهاً من وجوه الإعجاز، فقال عند ذكره فوائد القراءات ما نصه : " المبالغة في إعجازه بإيجازه ؛ إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات، فضلاً عن التيسير على الأمة المحمدية " [1] . والحاصل : أن قراءة اللفظ الواحد بقراءتين، قد يكون تيسيراً إذا كانت دلالة القراءة واحدة، وقد يكون لكل قراءة دلالة واعتباراً، وكلا الاعتبارين مراد .

وبذلك نجد أن وظيفة القراءات ودلالتها، تتلخص في تكثير المعنى بلفظ واحد، وهذا ضرب من ضروب الإيجاز .

وبذا فإن نزول لفظ قرآني بقراءتين لا يعني سوى أن لكل قراءة اعتباراً، بحيث يكون كلا الاعتبارين مراداً بدلالة السياق، وأن كل قراءة لها فائدة ودلالة محتملة، بحيث تتكامل القراءات المتعددة للفظ الواحد، وتتفاوت بأوجه دلالتها على أداء المقصود الذي يطابق أحوال الناس، كما قال عبد

---

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١ / ٢٧٩) .

القاهر الجرجاني .

لهذا وغيره : فقد لوحظ من تتبع الظواهر المترتبة على القراءات القرآنية أن أكثر تلك الظواهر تتصل بالإيجاز الذي يعد ضرباً من ضروب الإعجاز، الأمر الذي جعلني أسهم بالكتابة فيه تحت عنوان « الإيجاز وأسراره في القراءات » .

وقد رسمت خطة البحث على النحو الآتي : (مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث) .

أما **المقدمة** : فقد تناولت فيها أهمية القراءات وتنوعها .

وأما **التمهيد** : ففيه تحدثت عن تعريف الإيجاز وأهميته وأغراضه وعلاقته بالقراءات.

وأما **المبحث الأول** : فبعنوان : قراءة حرف المضارعة بالياء والتاء .

وأما **المبحث الثاني** : تغاير القراءات بين تخفيف عين الماضي أو المضارع وتشديدهما

وأما **المبحث الثالث** : قراءة الفعل بالبناء للفاعل مرة وبالبناء للمفعول تارة أخرى .

وأما **المبحث الرابع** : تغاير القراءات بين تاء الخطاب وتاء المتكلم .

وأما **المبحث الخامس** : تغاير القراءات بين تاء الخطاب وياء الغيبة .

وأما **المبحث السادس** : الإيجاز وعلاقته بالاحتباك وأثر ذلك على القراءات.

ثم ختمت بخاتمة موجزة تلخص ظاهرة الإيجاز وعلاقته بالقراءات.

والله أسأل أن ينفع به، وأن يجعله حجة لي لا عليّ، وصل اللهم على نبينا محمد، وعلى آله وسلم.

تمهيد:

الإيجاز: هو وضع المعانى الكثيرة فى ألفاظ أقل منها، وافية بالغرض المقصود مع الإبانة والإفصاح، وذلك بأن يكون اللفظ أقل من المعهود عادة مع وفائه بالمراد، وهو من الأساليب البليغة إذ إنه مظهر من مظاهر اكتمال الشخصية ونمو العقلية لما فيه من سيطرة الإنسان على فكره ولغته، ولذا يمكن اعتبار الإيجاز فى الكلام مقياساً يقاس به درجات الناس فى المجتمع(١)، الأمر الذى جعل الإمام علياً ـ كرم الله وجهه ـ يقول: «ما رأيت بليغا قط إلا وله فى القول إيجاز»(٢)، بل إن بعض الأدباء حد البلاغة بأنها الإيجاز، وعالم العربية ابن جني يعده شجاعة العربية، لما فيه من ارتباط وثيق بين قوة العربي واكتمال شخصيته ونمو عقليته وبين إيجاز تعبيره إيجازاً غير مخل بمراده(٣).

ومع التسليم بأن لكل مقام مقالاً، وأن الإطناب بغير ملل فى موضعه كالإيجاز من غير خلل فى موضعه، فإن البلغاء إلى الإيجاز أميل، " قيل للفرزدق ما صيرك إلى القصائد القصار بعد الطوال؟

فقال: لأنى رأيتها فى الصدور أوقع وفى المحافل أجود، وقالت بنت الحطيئة لأبيها: ما بال قصارك أكثر من طوالك؟ فقال: لأنها فى الآذان أولج وبالأفواه

---

(١) يراجع : جواهر البلاغة تأليف السيد المرحوم أحمد الهاشمىٰ ص ٢٢٢ ط إحياء التراث العربىٰ بيروت لبنان، ومدخل القراءات القرآنية فىٰ الاعجاز البلاغىٰ ٤٣ وعلوم البلاغة للشيخ أحمد مصطفىٰ المراغىٰ ١٦٨ ، ط. المكتبة المحمدية، القاهرة (وبلاغة القرآن فىٰ آثار القاضىٰ عبد الجبار للدكتور عبد الفتاح لاشين ١٦٩، ط . دار الفكر العربىٰ).

(٢) ينظر جواهر البلاغة ص٢٢٣، ومدخل القراءات القرآنية ص٤٥ .

(٣) الخصائص لابن جنىٰ ج ٢ ص ٣٦٠ ومدخل القراءات القرآنية مصدر سابق.

أعلق، وقيل لشاعر لم لا تطيل شِعرك؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق[١].

وإذا كان هذا شأن الايجاز عندهم فما بال الإطناب إذا كان صواباً؟ قيل لإياس بن معاوية:ما فيك عيب غير أنك كثير الكلام، قال: أفتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: بل صواباً، قال فالزيادة من الخير خير، يقول أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥هـ) معقباً: «وليس كما قال؛ لأن للكلام غاية، ولنشاط السامع نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال دعا إلى الاستثقال، وصار سبباً للملال، فذلك هو الهذر والإسهاب وهو معيب عن كل لبيب»[٢].

فالملاحظ أنهم لا يرفضون الإطناب إذا كان صائباً، ولكنهم إلى الايجاز أميل لعامل نفسى هو أن استعداد الناس لطول التلقى متفاوت، ولنشاط أكثرهم حد معين يؤدى ما زاد عنه إلى الاستثقال والملال، وقد تؤدى الإطالة إلى ضياع المقصود واستبهام الغرض، ولذا يقول محمد الأمين: عليكم بالإيجاز فإن له إفهاماً وللإطالة استبهاماً[٣].

وقال آخر: «القليل الكافى خير من كثير غير شافى»[٤] فإذا جئنا إلى كتاب الله الكريم وجدنا أن المعول عليه فى الحكم بالإيجاز أو الإطناب فى القرآن الكريم هو قياس التعبير فى إطار الجملة والآية أو السورة إلى ما يراد به لا

---

(١) الصناعتين لأبىٰ هلال العسكرىٰ ص١٨١. ط الحلبىٰ. تحقيق البجاوىٰ وأبىٰ الفضل إبراهيم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ينظر: جواهر البلاغة ص٢٢٣، ويراجع الصناعتين ص١٨١.

(٤) ينظر: جواهر البلاغة ص ٢٢٣.

قياساً إلى ما يفهم منه، لأن أفهام الناس متفاوتة، وهى مهما نضجت ودققت لن تبلغ نهاية ما أودع الله فى كلامه من معانٍ، ولهذا فإن من الخير لنا أن تسلم بأن القرآن كله إيجاز لعدم استطاعتنا الإحاطة بمراد الله من كلامه(١).

وإذا كان لا بد من اعتبار يعول عليه فى الحكم بالإيجاز والإطناب فلن تجد أضبط من قياس التعبير إلى طبيعة المقام وحاجته بشرط حسن التقدير، ولعلنا نجد أصلاً لذلك عند العلامة السعدي عندما عرض لقوله تعالى: ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [مريم: ٤] يقول: «فإنه إطناب بالنسبة إلى المتعارف وهو قولنا: «يَارَبُّ شِخْتُ» لكنه إيجاز بالنسبة إلى ما يقتضيه المقام؛ لأنه مقام بيان انقراض الشباب وإلمام المشيب، فينبغى أن يبسط فيه الكلام غاية البسط، ويبلغ فى ذلك كل مبلغ ممكن»(٢).

أما بالنسبة للقراءات القرآنية فإن الإيجاز يتميز عن غيره من الظواهر البلاغية فيها بأنه غرض أصيل وظاهرة مطردة فى كل القراءات فلا تتحقق فى قراءة دون أخرى، بل إنه ظاهرة مشتركة مع كل الظواهر البلاغية الأخرى فى القراءات، بحيث يمكن اعتباره من أهم الوسائل التى تبرز دور القراءات فى تحقيق الإعجاز البلاغى، ونجد العلماء وهم يعددون أغراض القراءات من تيسير وتخفيف وإجمال وتفصيل تجدهم يذكرون إلى جانب هذا غرض الإيجاز(٣)، فلا يذكرون من الظواهر البلاغية غيره لوضوحه واطراده.

---

(١) مدخل القراءات القرآنية ص ٤٥.

(٢) المطول للسعد ص ٢٨٣ ط أحمد كامل ١٣٣٠ هـ.

(٣) ينظر معترك الأقران ج ١ ص ١٦٩، والنشر ج ١ ص ٥٣ ، والتحرير والتنوير ج ١ ص ٥٥.

والإيجاز فى القراءات ناشئ من أن لكل قراءة دلالة واعتباراً، فاللفظ المقروء بقراءتين يحمل دلالتين واعتبارين ليسا بقدر اللفظ، ولكن تكون الدلالة الواحدة منهما بمقدار آية كاملة، والدلالات المترتبة على تعدد القراءات كلها معتبرة، ويتطلبها السياق والموقف.

يقول السيوطى (ت ٩١١هـ) مبينا وجهته فى القول بأن الإيجاز غرض من أغراض القراءات: «إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات، ولو جعلت دلالة كل لفظة آية على حدة لم يَخْفَ ما كان من التطويل، ولهذا كان قوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] منزلاً لغسل الرجل والمسح على الخف واللفظ واحد لكن باختلاف فى إعرابه»(١).

والسيوطى ـ رحمه الله ـ يقصد بذلك الأوجه الإعرابية المرتبطة بالأوجه المعنوية والتى هى ثمرة قراءة لفظ «أرجلِكم» بالجر عطفاً على «برءوسكم» وما يترتب عليه من الإشارة إلى جعل الرِّجْل مما يمسح، ويكون هذا فى حالة لبس الخفين، وبالفتح عطفا على «وجوهكم» وما يترتب عليه من الإشارة إلى جعل الرجل مما يغسل وهو الأصل، فقراءة الفتح هى الأصل، وقراءة الكسر أغنت عن النص على حكم المسح على الخفين، وبذلك يتبين أن قراءة أخرى تتمثل فى تغيير حركة إعرابية أغنت عن جملة أو آية، وهذا مظهر من مظاهر إعجاز الكتاب العزيز.

فاللفظ القرآنى بقراءتيه متعدد الإشعاع، وهو ما ينعكس على جهات متعددة مقصودة بما يؤدى إلى وضوح الرؤية لمن يرى، واكتمال المغزى لمن يتأمل، فدلالة اللفظ المقروء بأكثر من قراءة ليس من قبيل دلالة اللفظ

(١) معترك الأقران ج ١ ص ١٦٩.

المشترك الذى يدل على معنيين لغويين، ولكنه كما يقول الطاهر بن عاشور: «مُجْزئ عن آيتين فأكثر وهذا نظير التضمين فى استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه فى البديع، ونظير مستتبعات التراكيب فى علم المعانى، وهو من زيادة ملاءمة بلاغة القرآن»(١).

وفيما يلى عرض لبعض النماذج القرائية لهذه الظاهرة مع التوضيح والبيان والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٥، ويراجع مدخل القراءات القرآنية -٣٢٧-.

المبحث الأول:

قراءة حرف المضارعة بالياء والتاء

ويتمثل فى النماذج التالية:

النموذج الأول:

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

ففي قوله: ﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بالتاء وبها قرأ ابن كثير المكي وحمزة والكسائي وخلف العاشر.

الثانية: ﴿بما يعملون﴾ بالياء وبها قرأ الباقون(١).

توجية القراءتين مع بيان الوجه الإعجازي على كل منهما:

إن تنوع القراءتين بما يفيد الآتي : قراءة التاء تجعل الضمير فى الفعل «تعملون» عائدا على المؤمنين المخاطبين، والذين يحذرهم الله سبحانه أن يكونوا مثل الكافرين فيما ذكر وحكى عنهم، والمعنى: والله مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها وقراءة الياء تجعل الضمير عائداً على الذين كفروا على سبيل الوعيد لهم(٢) وبذلك نرى أن قراءة الفعل «تعملون» بالتاء مرة

---

(١) يراجع المبسوط في القراءات العشر من ١٤٨ والاختيار في القراءات العشر ج١ص٣٣٧ والإتحاف ج١ص٤٩٢.

(٢) راجع الكشف ج ١ ص ٣٦١، وحجة القراءات لابن زنجلة من ١٧٧- ١٧٨ والإتحاف مصدر سابق، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢/ ٥٠.

وبالياء مرة أخرى أغنى عن أن تكون الفاصلة مثلاً: والله بصير بما يعمل المؤمنون والكافرون أو بصير بما تعملون ويعمل الكافرون؛ أى: أن القراءتين معاً تحققان شمول علم الله جلت قدرته واطلاعه على ما يعمل الناس جميعاً، فضلاً عن الاعتبارات المعنوية المرتبطة بكل قراءة، ففى قراءة التاء تحذير المؤمنين من مماثلة الكافرين فيما قالوا، وفى قراءة الياء وعيد للكافرين لانصراف الكلام إليهم انصرافه للغائب(١).

النموذج الثانى:

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

ففي قوله: ﴿ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿ مما تجمعون ﴾ بالتاء وبها قرأ جمهور أهل الأداء.

الثانية: ﴿ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ بالياء وبها قرأ حفص عن عاصم(٢).

توجيه القراءتين:

إن قراءة التاء تطرد مع السياق الذى يخاطب المؤمنين، وقراءة الياء تجعل الضمير فى الفعل «يجمعون» عائداً على الكافرين(٣).

فالقراءتان معاً تفيدان الشمول؛ لأن مغفرة الله تعالى ورحمته خير مما يجمعه

---

(١) يراجع أنوار التنزيل وأسرار التأويل مصدر سابق وروح المعانى ج ٤ ص ١٠٢، ومدخل القراءات القرآنية ص ٤٩.

(٢) يراجع المبسوط فى القراءات العشر ص ١٤٨، وإبراز المعانى ص ٢٧٨ والاتحاف ج ١ ص ٤٩٣.

(٣) يراجع شرح الهداية ج ١ ص ٢٣٦ والموضح ج ١ ص ٣٧٩ بتصرف.

هؤلاء وهؤلاء، على أن قراءة الياء تحقق استمرار تهديد وتبكيت الكافرين الذين قالوا فى شأن المؤمنين الذين ضربوا فى سبيل الله: ﴿ لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾، وقراءة الياء فضلا عن كونها متعينة لهم فإنها تتناولهم تناول الغائب إبعاداً وإهمالاً وتهويناً من شأنهم(١).

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

إن لكل قراءة دلالة تدل عليها، فقراءة الفعل بالياء تارة وبالتاء تارة فذلك من الإيجاز؛ لأنه أغنى عن ذكر الفريقين وتعيينهما فى اللفظ، وبذلك فالمعنى على قراءة الياء: ان استشهدتم فى الحرب والجهاد «أو متم»؛ أى: جاءكم الموت وأنتم قاصدون قتالهم، لمغفرة من الله خير مما يجمعه غيركم ممن تركوا القتال.

والمعنى على قراءة التاء: أن السفر والغزو ليس مما يجلب الموت ويقدم الأجل، وإن وقع ذلك فى سبيل الله فما تنالون من المغفرة والرحمة والموت خير مما تجمعون - أيها المخاطبون - من الدنيا ومنافعها لو لم تموتوا(٢).وهذا إن دل فإنما يدل على أن القرآن الكريم معجز بقراءته.

النموذج الثالث:

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ففي قوله: ﴿ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ قراءتان متواترتان:

---

(١) يراجع المحرر الوجيز ج ١ ص ٥٣٣، وشرح الهداية مصدر سابق وينظر مدخل القراءات القرآنية ص ٤٩-٥٠.

(٢) يراجع الموضح ج ١ ص ٣٨٩، والكشاف ج١ ص ٤٣١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ج٢ ص ٥٠.

الأولى: ﴿ ترحمنا ربنا وتغفر لنا ﴾ بالتاء في الفعلين ونصب «ربنا» وبها قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر.

الثانية: ﴿ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالياء في الفعلين ورفع «ربنا» وبها قرأ الباقون[1].

توجيه القراءتين:

إن لكل قراءة من القراءتين السابقتين دلالة على حالة معينة بحيث تستقصى القراءتان الأحوال النفسية المحيطة بالكلام المحكى عن هؤلاء القوم، فقراءة: ﴿ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بالياء ورفع «ربنا» تعنى أنهم حدثوا بعضهم بعضا بنحو هذا الكلام ندما وحيرة، لا سيما وأنهم قالوه بعد أن تبينوا ما هم عليه من ضلال: ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ... ﴾.

أما قراءة: ﴿ لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا... ﴾ على الخطاب ونصب «ربنا» على تقدير النداء فإنها تعنى أنهم توجهوا إلى الله بالضراعة والدعاء أن يرحم ويغفر[2].

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

بإنعام النظر فى دلالة كل من القراءتين نلمح أن العلاقة بينهما قائمة على التكامل، إذ لا مانع أن يكون حديثهم فيما بينهم كان أولا ثم توجهوا إلى الله وتضرعوا إليه بعد ما أفضى بعضهم إلى بعض، وبذلك تكون كلتا القراءتين قد أغنتا عن الألفاظ الكثيرة المدلول بها عن تلك المعانى والأحوال المرتبطة بها. والله أعلم.

---

(١) يراجع المبسوط فى القراءات العشر ص ١٨٥، والتيسير الدانىٰ ص ٩٣ وإبراز المعانىٰ ص ٣٢٨، والنشر ج ٢ ص ٧٢، والإتحاف ج٢ص ٣٦.

(٢) يراجع فى ذلك الحجة لابن خالويه ص ١٦٤، والتفسير الكبير ج ١٣ ص ٢٧٨ – ١٨٨ بتصرف، وفى ظلال القرآن ج ٣ ص ١٣٧٤.

المبحث الثاني: تغاير القراءات بين تخفيف عين الماضى أو المضارع وتشديدها

ويتمثل فى النماذج التالية:

النموذج الأول:

قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فى قوله: ﴿ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال على أنه مضارع «كذّب» مضعف الثلاثى - وبها قرأ جمهور أهل الأداء.

الثانية: ﴿ لا يُكْذِبونك ﴾ - بضم الياء وإسكان الكاف وتخفيف الذال على أنه مضارع «أكذب» - وبها قرأ نافع وعَلِيّ المعروف بالكسائى[(١)].

توجيه القراءتين:

اختلف العلماء فى معنى القراءتين، فذهب البعض إلى أنهما بمعنى واحد، مثل أكثر وكثّر، وأنزل ونزّل. قال أبو على الفارسى: «يجوز أن يكون معنى القراءتين واحداً؛ لأن معنى التفعيل النسبة إلى الكذب بأن يقول له كذبت كما تقول ذنَّبته وفسَّقته وخطَّأته أى قلت له هذه الأشياء، وسقيته ورعيته أى قلت له سقاك الله ورعاك، وقد جاء فى هذا المعنى «أفعلته» قالوا: أسقيته أى قلت له سقاك الله... فيجوز على هذا أن يكون معنى القراءتين واحداً وإن اختلف اللفظان، إلا أن «فعَّلت» إذا أراد أن ينسبه إلى أمر أكثر من أفعلت...

---

(١) يراجع المبسوط فى القراءات العشر ص ١٦٨، والنشر ج٢ ص ٢٥٧ - ٢٥٨، وإبراز المعانى ص٣٠٢.

ويؤكد أن القراءتين بمعنى أنهم قالوا: قلَّلت وكثَّرت وأقللت وأكثرت بمعنى حكاه سيبويه.

وذهب جلة العلماء إلى أن بين القراءتين فرقاً، فمعنى قراءة التشديد ﴿ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾؛ أى: أنهم لا يقدرون أن ينسبوك إلى الكذب فيما جئت به[1].

قال ابن عباس -رضى الله عنهما-: «لا يسمونك كذاباً ولكنهم ينكرون آيات الله بألسنتهم، وقلوبهم موقنة بأنها من عند الله»[2].

وبهذا فقد أفادت قراءة التشديد خبراً محصاً عن عدم تكذيبهم إياه ﷺ فإن قيل: هذا محال؛ لأن بعضهم قد وُجد منه التكذيب ضرورة، فالجواب من وجهين:

الأول: أن هذا وإن كان منسوباً إلى جميعهم أعنى عدم التكذيب؛ فهو إنما يراد به بعضهم مجازاً كما فى قوله سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وقوله جل شأنه: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وإن

---

(١) يراجع الكشف ج ١ص ٤٣٠، وفتح القدير للشوكانىٰ ج ٢ ص ١١١.
وقد ذكر فىٰ معنىٰ قراءة التشديد خمسة أوجه سأذكرها من باب إتمام الفائدة:
الأول: لا يكذبونك بحجة، وإنما هو تكذيب عناد وبهت، قاله قتادة
الثاني: لا يقولون لك: إنك كاذب لعلمهم بصدقك، ولكن يكذبون ما جئت به قاله ناجية بن كعب
الثالث: لا يكذبونك فىٰ السر، ولكن يكذبونك فىٰ العلانية عدواة لك، قاله ابن السائب ومقاتل. ينظر زاد المسير ج٣ص ٢٢ والبحر المحيط ج ٤ ص١١١.
الرابع: لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما فىٰ كتبهم كذبت
الخامس: لا يكذبونك بقلوبهم؛ لأنهم يعلمون أنك صادق، ينظر معانىٰ القرآن وإعرابه ج٢ص٢٤٢.
(٢) ينظر شرح الإمام الزبيدىٰ ص ٢٩١.

كان فيهم من لم يكذبه، فهذا عام يراد به الخاص.

والثانى: أنه نفى التكذيب لانتفاء ما يترتب عليه من المضار، فكأنه قيل: فإنهم لا يكذبونك تكذيباً تبالى به ويضرك؛ لأنك لست بكاذب فتكذيبهم كلا تكذيب. فهو من نفس السبب لانتفاء مسببه[١].

وقال الزمخشرى: والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله؛ لأنك رسوله المصدق، فهم لا يكذبونك فى الحقيقة، وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فانْتَهِ عن حزنك، كقول السيد لغلامه، وقد أهانه بعض الناس : لن يهينوك، وإنما أهانونى..»[٢].

وأما قراءة التخفيف «لا يُكْذِبونك» فمعناها: لا يجدونك كاذباً؛ لأنهم يعرفونك بالصدق، ولا ينسبونك بالكذب[٣]. وعليه فتكون قراءة التخفيف من باب أحمدت الرجل أى وجدته محموداً، وأكذبت الرجل أى وجدتا كاذباً، ودل على صحة ذلك قوله ﷻ: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴾؛ أى: يجحدون ما يعلمون صحته يقيناً وعناداً منهم[٤] وحكى الكسائى عن العرب «أكذبت الرجل» إذا أخبرت أن الذى يحدث به كذب، ليس هو صانع له.

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

مما سبق يتبين لنا أن القراءتين قد أفادتا مدى جحود الكفار، فهم يعلمون

(١) يراجع البحر المحيط ج ٤ ص ١١١، والدر المصون ج٣ ص٤٩.
(٢) ينظر الكشاف ج ٢ ص١٨.
(٣) يراجع الكشف ج ١ ص ٤٣٠، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٢٤٨- ٢٤٩ والبحر المحيط ج ٤ ص١١١، والدر المصون ج٣ ص٤٨.
(٤) يراجع الكشف وحجة القراءات لابن زنجلة السابقان.

علماً يقينياً صدق رسول الله ﷺ فهو عندهم يعرف بـ«الصادق الأمين» كما يعلمون صدق ما جاء به فى نفوسهم ولكنه من باب: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

الخلاصة: أنهم لا يكذبون الرسول ﷺ فى نفسه، كما لا يملكون تكذيب ما جاء به، بمعنى إظهار كذبه فيه، ولكنهم يجحدون.

قال القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ) بعد ذكره لهذه الآية الكريمة: «... ففى هذه الآية منزع لطيف المأخذ من تسليته تعالى له –عليه السلام– وإلطافه به فى القول، بأن قرر عنده أنه صادق عندهم وأنهم غير مكذبين له، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يسمونه قبل النبوة: «الأمين» فدفع بهذا التقرير ارتماض نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين؛ فقال ـ تعالى ـ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فحاشاه من الوصم، وطوقهم بالمعاندة بتكذيب الآيات حقيقة الظلم، إذا الجحد إنما يكون ممن علم الشىء ثم أنكره كقوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾، ثم عزاه وآنسه بما ذكره عمن قبله ووعده النصر بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] اهـ(١).

قلت: مما سبق فى الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين نلمح أن لفظاً قد أدى معنيين مختلفين، لكنهما يتعاونان فى ترسيخ تلك الحقيقة التى سيقت تسرية عن النبى ﷺ.

(١) ينظر الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ج ١ ص ١٨ - ١٩ ط/ مصطفىٰ البابىٰ.

إذ المعنى الأول: هو أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليس كاذباً بشهادة الكفار؛ لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً قط.

والثاني: أنهم لو اجتهدوا فى تلمس تكذيبه فى شيء ما فلن يستطيعوا ولا يتأتى أداء هذين المعنيين بلفظ واحد إلا عن طريق القراءات القرآنية التى تعد طريقاً بارزاً من طرق الإيجاز فى القرآن الكريم، والله أعلم.

النموذج الثاني:

قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾ [طه: ٨٧].

ففى قوله: ﴿ حُمِّلۡنَآ ﴾ قراءتان:

الأولى: ﴿ حُمِّلۡنَآ ﴾ بضم الحاء وكسر الميم مشددة على أنه فعل ماض من حمَّل مزيداً بالتضعيف مبيناً للمفعول - وبها قرأالمدنيان وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم.

الثانية: ﴿ حَمَلْنَا ﴾ بفتح الحاء والميم مخففة على أنه فعل ماض ثلاثى مجرد مبنى للمعلوم - وبها قرأ الباقون وهم البصريان وشعبة عن عاصم وحمزة والكسائي، وخلف العاشر[(١)].

توجيه القراءتين:

إن قراءة الفعل «حَمَلْنَا» بالتخفيف والبناء للفاعل تعنى أنه كان من قوم موسى حمل للأوزار أى الحلى، وإنما سميت أوزاراً باعتبار ما صارت إليه من تبعات وآثام، وقراءة التشديد والبناء للمفعول تعنى أن غيرهم -وهو

(١) يراجع المبسوط فى القراءات العشر ص٢٥٠، والاختيار فى القراءات العشر ج ٢ ٥٤٥، والنشر ٢ / ٣٢٢، والاتحاف ٢ / ٢٥٥، والكشف ٢ / ١٠٤ – ١٠٥.

السامرى- هو الذى حمَّلهم إياها[1]، وعلى كل فلا تعارض بين القراءتين؛ لأنهما تدلان معاً على أن هؤلاء القوم وقعوا فريسة الأغواء والإغراء، فعندما حُمِّلوا تلك الأوزار حملوها ولم يدفعوها أو يظهروا كرها لها.

فقراءة التشديد تدل على أنهم كانوا تابعين فى ذلك الحمل للسامرى، وهم مندفعون لمتابعته فى استهواء شديد، وهو ما يشير إليه صدر الآية الكريمة ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا ﴾، وقراءة التخفيف تعنى أنهم تبعوه راضين غير كارهين فلم يدفعوا إغراءه، بل هم الذين قالوا لموسى من قبل ﴿ ...ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فقد كانوا مهيئين لنحو هذا؛ لقرب عهد إيمانهم بموسى -عليه السلام- أو لطبع واستعداد فيهم، فهم غير مبرئين، ولذلك صح أن يُسْنَد حمل الأوزار إليهم فى قراءة التخفيف[2].

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

والحاصل أن كلتا القراءتين تتعاونان فى الإحاطة بمدى ما وقعوا تحته من تأثير، ومدى ما كان لديهم من رغبة حتى التقت الأهواء على الأهواء فكان ما كان، ولا شك أن فى أداء لفظ واحد لكل هذه الإشارات إيجازاً لا يتأتى إلا بقراءة هذا اللفظ على هذين الوجهين، فالقراءات بما فيها من إيجاز مظهر من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم، والله أعلم.

---

(١) يراجع الكشف مصدر سابق، وحجة القراءات لابن زنجلة ص ٤٦٢، وشرح الهداية ج ٢ ص ٤٢٢، والموضح ج٢ ص ٨٤٩.

(٢) المصادر السابقة ونظم الدرر ج ٥ ص ٣٩، وفى ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٣٤٧ - ٢٣٤٨ بتصرف واختصار، وينظر مدحل القراءات القرآنية ص.

المبحث الثالث:

قراءة الفعل بالبناء للفاعل مرة وبالبناء للمفعول تارة أخرى

ويتمثل فى **النموذج** الآتي:

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴾ [الكهف: ٩٣].

ففى قوله:﴿ يَفۡقَهُونَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى:﴿ يَفۡقَهُونَ﴾ بفتح الياء والقاف وبها قرأ جمهور أهل الأداء.

الثانية: ﴿ يُفْقِهُونَ ﴾ بضم الياء وكسر القاف وبها قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر(١).

توجيه القراءتين:

فوجه من قرأ ﴿ يَفۡقَهُونَ﴾ بفتح الياء والقاف فعلى أنه مضارع من «فقه» الثلاثي من باب علم وهو يتعدى لمفعول واحد، والمعنى على هذه القراءة: حتى إذا اوصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين، في أقصى بلاد الترك لا يكادون يفهمون قولاً من غيرهم إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها، وذلك لجهلهم بلسان من يخاطبهم وقلة فطنتهم.

وأما وجه من قرأ «يُفْقِهُونَ» بضم الياء وكسر القاف فعلى أنه مضارع من

---

(١) يراجع المبسوط فى القراءات العشر ص ٢٣٩، وتقريب النشر ص ١٣٨، والإتحاف ج ٢ ص ٢٢٥، والكشاف ج ٢ ص ٧٤٦، والفريد فى إعراب القرآن المجيد ج ٢ ص ٣٦٩، وفتح القدير للشوكانى ج ٣ ص ٣١١، والمهذب فى القراءات العشر ج ٢ ص ١١١.

«أفقه» غيره أي أفهمه وهو متعد لمفعولين، المفعول الثاني قولا والمفعول الأول محذوف، أي لا يُفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه، وذلك لأن لغتهم غريبة مجهولة(١).

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

بإمعان النظر فى دلالة كل من القراءتين نلحظ أن العلاقة بينهما علاقة تلازم؛ إذا المعنيان متلازمان فقد جاءت الأولى تنفى قدرتهم على فهم الخطاب والثانية تنفى قدرتهم على الإفهام. ومن لا قدرة له على الفهم فمن باب أولى لن يكون له قدرة على الإفهام.

ومعنى القراءتين جملة: أن هؤلاء القوم لا يكادون يَفْهمون من غيرهم ولا يُفْهمون غيرهم؛ لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم(٢).

والمغزى من وراء القراءتين هو الإشارة إلى أن ذا القرنين قد أبعد فى المسير حتى ذهب إلى أرض لا يعرف هو ومن معه أن أهلها لا يعرفون لسانه إلا بمشقة باللغة، والسياق يدل على هذا الإبعاد، فقبل هذا قوله سبحانه: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ... ﴾ [الكهف: ٨٦]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ ...﴾ [الكهف: ٩٠]، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ ﴾ [الكهف: ٩٣]، وإذا كانت القراءتان تشيران إلى أن عسر التفاهم وصعوبته لأن كلا الطرفين لا يكاد يفهم لغة الآخر، فإن ذلك توصلا إلى أنه مع هذا اجتمعا على هدف واحد هو نصرة الحق ومواجهة فساد يأجوج ومأجوج، وفى ذلك إشارة إلى أن مواجهة

(١) المصادر السابقة والموضح ج ٢ ص ٧٩٩، وشرح الهداية ج ٢ ص ٤٠٣.
(٢) ينظر فتح القدير للشوكانى مصدر سابق.

الفساد ينبغى أن يكون هدف كل الناس مهما تباعدوا ومهما اختلفت ألوانهم ولغاتهم واختلاف اللغة لا يمنع من تلمس سبل التفاهم طالما اتحد الهدف لاسيما إذا كان هدفا ساميا ينشر الحق ويواجه الفساد والباطل.

أترى أبين من هذا دلالة على مدخل القراءات فى الإعجاز بما فيها من إيجاز، والله أعلم.

المبحث الرابع: تغاير القراءات بين تاء الخطاب وتاء المتكلم

ويتمثل فى **النموذج** الآتي:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ففي قوله: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ بفتح التاء وبها قرأ جمهور أهل الأداء.

الثانية: ﴿ لقد علمتُ ﴾ بضم التاء وبها قرأ الكسائي[(١)].

توجيه القراءتين:

إن قراءة الجمهور ﴿ عَلِمْتَ ﴾ بفتح التاء أسندت هذا العلم إلى فرعون، مخاطبة من موسى له بذلك على وجه التقريع والتوبيخ له، على شدة معاندته للحق، وجحوده له بعد علمه، ولذلك أخبر تبارك وتعالى عنه وعن قومه فقال: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ... ﴾ [النمل: ١٣، ١٤]، فكأن موسى عليه السلام خاطب فرعون قائلا له: لقد علمت يا فرعون أن الذى أنزل الآيات هو رب السماوات والأرض وأنت تجحده كفرا وعنادا وتجبرا[(٢)].

---

(١) يراجع التبصرة لمكىٰ ص ٢٤٦، وإبراز المعانىٰ ص ٣٨٠، والنشر ج ٢ ص ٣٠٩، والإتحاف ج٢ ص ٢٠٦.

(٢) يراجع الحروف السبعة للقرآن لأبىٰ عمرو الدانىٰ ص٥٠ ط دار المنارة – المملكة العربية السعودية والحجة لابىٰ علىٰ الفارسىٰ ج ٥ ص ٥٢، والموضح ج ٢ ص ٧٦٩.

وأما قراءة الكسائى «علمتُ» بضم التاء فعلى أنه اسند هذا العلم إلى موسى عليه السلام حديثا منه لفرعون حيث قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فقال موسى -عليه السلام- عند ذلك: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾؛ أى: قال لقد علمت أنا صحة ما أتيت به علما يقينا، أراد بذلك - عليه السلام - أن ينفى عن نفسه تهمة الجنون الذى نسبه إليه فرعون، فصار علمه من هذا الوجه حجه على فرعون ـ لعنه الله ـ[(١)].

ورويت هذه القراءة كما قرر ابن أبى مريم الفسوى عن على ـ كرم الله تعالى وجهه ـ[(٢)].

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

بإنعام النظر فى القراءتين نلمح أنهما بمنزلة آيتين؛ إذ كل قراءة منهما قائمة بنفسها لا تصح أن تجتمع مع الأخرى، وذلك لاختلافهما فى اللفظ والمعنى، وامتناع جواز اجتماعهما، فقد أخبرت إحداهما عن حال موسى - عليه السلام - والأخرى عن حال فرعون عليه اللعنة، ومع ذلك فليس بين القراءتين تناقض ولا اختلاف تضاد، بل يُصَدِّق بعضُها بعضا.

وفى هذا دليل على الايجاز وهو ضرب من ضروب البلاغة القرآنية إذ ذكر حالين فى آية واحدة.

قال أبو محمد على بن حزم: «وكلا القراءتين حق من عند الله تعالى، لا

(١) ينظر المصادر السابقة فى هامش (٢) وشرح الهداية ج ٢ ص ٣٩١.
(٢) يراجع الأحرف السبعة للقرآن ص ٥٠ بتصرف.

يجوز أن يرد منها شئ، فنعم موسى عليه الصلاة والسلام علم ذلك وفرعون علم ذلك» (١).

هذا وفى الآية الكريمة بالقراءتين دليل على أن الكفار يجحدون بألسنتهم الآيات التى أتى بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقلوبهم تستيقن بها، وتعلم أنها حق.

وقد جاء هذا المعنى فى آيات منها قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله جل شأنه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَـٰتُنَا مُبۡصِرَةً قَالُواْ هَـٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾.

وفيها دليل أيضاً على أن المعرفة القلبية، واليقين القلبى المجرد عن عمل الجوارح، والقول باللسان، لا يكون إيماناً شرعياً وأنه لا ينفع صاحبه(٢).

وخلاصة القول فى القراءتين:

أنه لا تناقض بين دلالتيهما؛ لأنهما تشيران فى إيجاز شديد –والله أعلم– إلى أن هذين موقفان متفاوتان فى الزمن، ومواقف موسى –عليه السلام– مع فرعون متعددة، والمرجح أن تكون قراءة ضم التاء «علمتُ» مشيرة إلى الموقف الأول الذى يأخذ فيه موسى باللين ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا ﴾ [طه: ٤٤]، ولما عرَّف موسى عليه السلام فرعون بأنه رسول من الله تعالى، وأن هذه آيات ربه كان الموقف الثاني الذى تشير إليه قراءة التاء مفتوحة، ويكون علم فرعون

(١) ينظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ج٣ ص ٢٠٣ ط دار المعرفة.
(٢) يراجع الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ٢٠٠ إلى ص ٢١٢ بتصرف.

بأن ما أنزل هؤلاء الآيات إلا رب السماوات والأرض مبنى على إخبار موسى إياه فى موقف سابق.

إما لماذا بلغ الإيجاز هذه الدرجة من التركيز حتى يُدمَج موقفان فيدل عليهما بقراءتين لفظ واحد؛ فلمناسبة مقام سورة الإسراء التى تركز فى عرض قصة موسى وفرعون تركيزاً شديداً، فلا تزيد عن أربع آيات، منها اثنتان بالحوار، وذلك تسرية عن رسولنا محمد ﷺ الذى كذبه قومه فى آية الاسراء، فكانت التسرية بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١]، فإن تكذيب موسى -عليه السلام- كان فى تسع آيات لا فى آية واحدة، وصدق الله تعالى فى قوله: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله جل شأنه: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

ويتبين من هذا أن الإيجاز مظهر بارز من مظاهر القراءات يتضمنه المقام ويستدعيه المغزى المرتبط بهذا المقام[1]، والله أعلم.

(١) مدخل القراءات القرآنية فى الإعجاز البلاغى ص ٥٦ – ٥٧.

المبحث الخامس تغاير القراءات
بين تاء الخطاب وياء الغيبة

وتتمثل هذه الظاهرة القرآنية في النماذج التالية:

النموذج الاول:

قوله تعالي: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ففي قوله: ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: ﴿ عما يعملون ﴾ بياء الغيبة وبها قرأ نافع وابن كثير وشعبة عن عاصم ويعقوب وخلف العاشر.

الثانية: ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب وبها قرأ الباقون(١).

توجية القراءتين:

إن القراءة بتاء الخطاب علي أن الكلام راجع لما قبله، والمعني: فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا، ثم التفت فقال: يردون ثم عاد لخطابهم فقال: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أى: عن أفعالكم(٢).

وقيل: إن الخطاب لأمة محمد ﷺ ذكر ذلك صاحب البحر(٣) والدليل عليه ماروي عن عمر بن الخطاب قال: إن بني إسرائيل قد مضوا وأنتم الذين تعنون بهذا يا أمة محمد وبما يجري مجراه(٤).

---

(١) يراجع: النشر ٢/ ٢١٨ والإتج١ص٤٠٣ وشرح الإمام الزبيدي ص٢١٩ حاف.
(٢) يراجع: الكشف ١/ ٢٥٣ وحجة القراءات لابن زنجلة ص١٠٥.
(٣) ينظر: البحر المحيط ١/ ٢٩٤ ويراجع: روح المعاني ١/ ٣١٥.
(٤) المصدران السابقان.

أما القراءة بياء الغيبة فعلي أن الكلام راجع لقوله تعالي: «يردون» وأيضا مناسبة لقوله تعالي: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ﴾ [البقرة: ٨٦] وكأن الله ﷻ يخبر أمة محمد ﷺ أنه ليس بغافل عن عمل من كان قبلهم، وهو إذا ليس بغافل عن أعمالهم(١).

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

أن القراءة بالخطاب أفادت الزجر لبني إسرائيل والوعيد لهم علي عصيانهم، والحث لهم علي مراقبة الله ﷻ، وكذلك الايمان بجميع الكتب المنزلة لهداية الناس وفي قراءة الغيب تجاهل لليهود الذين فرقوا بين الرسل والكتب في الايمان فآمنوا ببعض، وكفروا ببعض، كما أن في القراءة بالغيب تحذيرا للأمة المحمدية أن يصنعوا صنيع اليهود فيهلكوا كما هلكوا(٢).

النموذج الثاني:

قوله تعالي: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢].

ففي قوله: ﴿ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: «هَل(٣) تَّسْتَطِيعُ رَبَّكَ» بتاء الخطاب ونصب «رَبَّك» وبها قرأ الكسائي.

---

(١) يراجع: الكشف ١/ ٢٥٣، والإتحاف ١/ ٤٠٣ والعلاقة بين القراءات والتفسير ص٢٣٦.

(٢) المصادر السابقة وروح المعاني ١/ ٣١٥.

(٣) تنبيه: أدغم الكسائي أيضا لام " هل " في تاء " تستطيع " ينظر كتاب السبعة ص٢٤٨ وكتاب الإقناع ٢/ ٦٣٦.

الثانية: ﴿ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾[1] بياء الغائب ورفع «رَبُّكَ» وبها قرأ الباقون[2].

توجية القراءتين:

أن قراءة جمهور أهل الأداء معناها: هل يطيعك ربك إن سألته «أن ينزل» فيستطيع بمعنى يطيع كما قالوا استجاب بمعني أجاب وكذلك استطاع بمعني أطاع[3]، وهذا المعني منسوب إلي الإمام السدي[4].

وقيل المعني هل يفعل أو يقدر ربك[5] وهذا القول صدر الإمام النسفي به كلامه ولكنه بعبارة: هل يفعل[6] فقط. وكان هذا السؤال الذي صدر من الحواريين كما يري البعض في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله ﷻ، ولهذا قال عيسي في الجواب عند غلطتهم وتجويزهم علي الله ما لا يجوز ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾؛ أي لا تشكوا في قدرة الله ـ تعالي ـ[7].

---

(١) وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومعاذ ـ رضي الله عنهم ـ وسعيد بن جبير. محاسن التأويل ٦/ ٢٢١٢ وفتح القدير ٢/ ٩٢.

(٢) يراجع: غاية الاختصار ٢/ ٤٧٥ وكتاب الإقناع ٢/ ٦٣٦ والنشر ٢/ ٢٥٦.

(٣) قال القاسمي: «وقيل المعني: هل تطيع ربك؟ أي هل يستجيب دعوتك إذا دعوته؟» فسيستطع «بمعني و«يطيع» بمعني «يجيب» مجازا؛ لأن المجيب مطيع. محاسن التأويل ٦/ ٢٢١٣.

ويراجع في ذلك الكشاف ١/ ٦٩٣ والجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٦٤ وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٩٢-٩٣ ومعالم التنزيل ٣/ ١١٧.

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن السابق.

(٥) يراجع: الجامع لأحكام القرآن السابق.

(٦) يراجع: في ذلك الكشف ١/ ٤٢٢ ومعاني القراءات ١/ ٣٤ ٣ والانتصاف لأحمد بن المنير السكندري ١/ ٦٩٢ بذيل الكشاف.

(٧) يراجع: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٦٤ ومحاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢٢١٣.

وقال الإمام القرطبي: «وهذا فيه نظر؛ لأن الحواريين خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال تعالى: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ ﴾ [الصف: ١٤]، وقال عليه الصلاة والسلام: «لكل نبي حواريٌّ وحواريَّ الزبير»[(١)] ومعلوم أن الأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم– جاءوا بمعرفة الله تعالى وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم؛ فكيف يخفي ذلك علي من باطنهم واختص بهم حتي يجهلوا قدرة الله تعالى؟

إلا أنه يجوز أن يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم[(٢)].

وقيل: إن القوم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه؛ لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما طلبوا المعاينة ليزدادوا بصيرة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقد كان إبراهيم علم لذلك علم خبر ونظر، ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبه لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبه والاعتراضات وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك ولذا قال الحواريون : ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ [المائدة:١١٣]، كما قال إبراهيم : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠][(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير رضىٰ الله تعالىٰ عنهما ٤: ١٨٧٩، وأخرجه بنحوه البخارىٰ كتاب فضائل الصحابة باب مناقب الزبير بن العوام ٧: ٩٩ رقم ٣٧١٨ كلاهما عن جابر رضىٰ الله عنه.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٦٤ ويراجع: فتح القدير للشوكاني ٢/ ٩٢.

(٣) يراجع: شرح الهداية ٢/ ٢٧٢ والجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٦٤-٣٦٥ وفتح القدير ٢/ ٩٢-٩٣ ومحاسن التأويل للقاسمي ٦/ ٢٢١٣.

وأما قراءة الكسائي ﴿ هل تستطيع ﴾ فعلي حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، والتقدير: هل تستطيع سؤال ربك، وقد «تستطيع» عمل في «سؤال» وحذف سؤال «وأقيم» ربك مقامه[1] وهذا الأسلوب استفهام فيه معني الطلب، أي اسأل لنا ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء أو هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عن سؤاله[2].

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

مما سبق يتضح لنا أن هناك علاقة حاصلة بين القراءتين ففي القراءة بالغيبة

﴿ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ طلب لمعاينة المائدة؛ وذلك ليزداد هؤلاء الحواريون بصيرة، ويتمكن الإيمان بالله في قلوبهم.

وفي قراءة الخطاب «هل تستطيع ربك» تعظيم لشأن المولي جلت قدرته وتنـزه عن العجز حيث أسند الحواريون السؤال عن الاستطاعة إلي عيسي – عليه السلام– وفيه إشارة إلي تكريم عيسي وتعظيمه حيث استجاب الله لدعائه، وبذا تكون كل قراءة قد أفادت معني.

النموذج الثالث:

قوله تعالي: ﴿ أَوَلَا يَرَوۡنَ أَنَّهُمۡ يُفۡتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٖ مَّرَّةً أَوۡ مَرَّتَيۡنِ ثُمَّ

---

(١) ولا يجوز أن يكون قوله: " تستطيع " عاملا في قوله: " أن ينزل "؛ لأنه لا يجوز أن تقول هل تستطيع أنت أن يفعل غيرك كذا. شرح الهداية ٢/ ٢٧١ والفريد في إعراب القرآن المجيد ج٢ص ١٠٦.

(٢) يراجع: شرح الهداية ج٢ص٢٧١ والكشاف ج١ص٦٩٣ وإعراب القراءات السبع وعللها ج١ص١٥٠ والفتوحات الإلهية ج١ص٥٤٢ والفريد في إعراب القرآن المجيد ج٢ص١٠٦ والحجة لابن خالوية ص١٣٥.

لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٩].

ففي قوله: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولي: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ بياء الغيبة – وبها قرأ جمهور أهل الأداء.

الثانية: ﴿ أو لا ترون ﴾ بتاء الخطاب - وبها قرأ حمزة ويعقوب الحضرمي[(١)].

توجيه القراءتين:

أن قراءة الياء محمولة علي الإخبار عن المنافقين لتقدم ذكرهم، وفي الكلام معني التوبيخ لهم، والتقريع علي تماديهم فى النفاق وعلي ما يرون من الفتن والمحن في أنفسهم فلا يتوبون من نفاقهم.

وأما قراءة الخطاب فمحمولة علي المخاطبة من الله تعالي للمؤمنين، والتنبيه لهم علي ما يعرض للمنافقين من الفتن وهم لا يزدجرون بها عن نفاقهم، فيكون من تنزيل الرائي منزلة غيره حتى ينكر عليه عدم رؤيته ما لا يخفي[(٢)].

الوجه الإعجازي المترتب على تنوع القراءتين:

جاءت كل قراءة لتشير إلي معني، إلا أن بين المعنيين علاقة وارتباطًا، فقد جاءت قراءة الغيب لتوبخ المنافقين وتقرعهم بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة التي تؤكد كذبهم كما يدل علي ذلك الهمزة الدالة علي الإنكار والتوبيخ ثم تأتي قراءة الخطاب تسلية للمؤمنين عما يرون من كيد المنافقين

---

(١) يراجع النشر ج٢ص٢٨١، والإتحاف ج٢ص١٠٠، وشرح الإمام الذبيدي ص٣٣١.

(٢) يراجع: الكشف ج١ص٥٠٩، والتحرير والتنوير ج١١ص٦٧.

ومكرهم، فكأن الحق سبحانه يقول للمؤمنين أو لا ترون أيها المؤمنون ما يصيب المنافقين من بلاء وفتنه في كل عام مرة أو مرتين، فلا يرجعون عن كفرهم ونفاقهم فهذا تنبيه للمؤمنين علي حال المنافقين وقلة اعتبارهم واتعاظهم، مما يدعو إلي التعجب من أمرهم كما دلت عليه الهمزة التي تفيد التعجيب علي قراءة الخطاب[1]، والله أعلم.

(١) يراجع: الموضح ج٢ص٦٠٩ بتصرف، وروح المعاني ج١١ص٥١.

المبحث السادس :
الإيجاز وعلاقته بالاحتباك
وأثر ذلك على القراءات

ويتمثل في النماذج التالية :

النموذج الأول :

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ [١] قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢][٢].

ففي قوله: حَتَّىٰ﴿ يَطْهُرْنَ﴾ قراءتان متواترتان:

الأولى: " حتى يطهرن " بفتح الطاء وضم الهاء مشددتان وبها قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر.

الثانية: بسكون الطاء وضم الهاء وتخفيفهما وتلك قراءة الباقين وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر وحفص[٣].

---

(١) المحيض: مصدر ميمي بمعنىٰ الحيض ومنه الحوض لأن الماء يسيل إليه. قال الطبري: وسمي الحيض أذىٰ لنتنه وقذره ونجاسته القاموس المحيط ٢/ ٣٢٩، وجامع البيان للطبري ٢/ ٣٨١.

(٢) وفي سبب نزول الآية قال العلماء ما ملخصه: إن العرب في المدينة قد استنوا بسنة بني إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها فنزلت، وقال مجاهد: كانوا يتجنبون النساء في الحيض ويأتونهن في مدة زمن الحيض فنزلت وزاد البيضاوي: أنه حين كانت العرب تفعل ذلك نزلت الآية وأمر الله لاعتزال النساء في المحيض من حيث المجامعة، ولم يأمر بإخراجهن من البيوت كما كانت تفعل الأعاجم، وهذا هو الاقتصاد بين إفراط النصارىٰ. الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨١ وتفسير البيضاوي ١/ ٢٣٧ وينظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢١١.

(٣) يراجع: النشر ١/ ٢٢٧، وإتحاف فضلاء البشر ١/ ٤٣٨، وإبراز المعاني ص ٢٥٣،

توجيه القراءتين:

فأما توجيه القراءة الأولى- قراءة التشديد- ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ أي اجتنبوا مجامعتهن حتى ينقطع الدم عنهن ويغتسلن بالماء، وأما على القراءة الثانية: قراءة التخفيف ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ ؛ أي: لا تجامعوهن حتى ينقطع الدم عنهن، فيكون هذا نهي من الله لعباده عن قرب الحائض حتى ينقطع دم الحيض عنها. وبذا فقد جعل انقطاع دم الحيض غاية النهي عن قربانهن(١).

ويرى الإمام أبو علي الفارسي – رحمه الله – وجها آخر لقراءة التخفيف حيث قال: " ويحتمل أن يكون حَتَّىٰ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ حتى يفعلن الطهارة التي هي الغسل؛ لأنها ما لم تفعل ذلك كانت في حكم الحيض، لكونها ممنوعة من الصلاة والتلاوة، وأن لزوجها أن يراجعها إذا كانت مطلقة فانقطع الدم ولم تغتسل، كما كان له أن يراجعها قبل انقطاع الدم(٢) وهذا القول مروي عن أكثر الصحابة – رضوان الله عليهم(٣).

والجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨٨، وحاشية الشهاب علي البيضاوي ٢/ ٥٢٣.

(١) يراجع: الحجة لأبي علي الفارسي ٢/ ٣٢٢ وما بعدها وحجة القراءات لابن زنجلة ص ١٣٥، وشرح الهداية لابن عمار المهدوي ١/ ١٩٨، وتفسير أبي السعود المسمىٰ إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم ١/ ١٧٠.

(٢) ينظر: الحجة للفارسي ٢/ ٣٢٢.

(٣) وهذا قول عمر ابن الخطاب، وعبد الله، وعبادة بن الصامت، وأبي الدرداء، وروىٰ عن الشعبي أنه عن ثلاثة عشر من الصحابة: منهم أبو بكر وعمر وابن مسعود وابن عباس ـ الحجة للفارسي ٢/ ٣٢٢.

الإعجاز التشريعي المترتب علي تنوع القراءتين:

لقد كان لورود القراءتين في النص الكريم أثر في اختلاف الفقهاء، فقد رتبوا علي ذلك حكمين مختلفين بناء علي قراءة ﴿ يطَّهَّرن﴾ بالتضعيف وقراءة ﴿ يطْهُرن﴾ بالتخفيف، وعلي هذا فقد اختلف الفقهاء في معني الطهر الذي تحل به المرأة لزوجها:

١- فذهب جمهور الفقهاء إلي أن المرأة إذا انقطع حيضها لا يحل لزوجها مجامعتها إلا بعد أن تغتسل بالماء، وهذا قول مالك والأوزاعي والشافعي والثوري وأحمد بن حنبل(١).

واستدلوا علي ما ذهبوا إليه بقراءة التضعيف الواردة في قوله تعالي: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطَّهَّرْنَ ﴾.

ووجه الدلالة من هذه القراءة:

أن الله نهي عن مجامعة النساء في حال الحيض في موضع الحرث حتي يتطهرن أي يغتسلن بالماء، وذلك أخذاً من قراءة التشديد في ﴿ يطّهّرن ﴾ إذ إن صيغة التشديد هذه تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض؛ لأن زيادة المبني تدل علي زيادة المعني، وهذه الزيادة توجب تنقية المحل مما علق به من أذى دم الحيض الذي صرحت به الآية الكريمة في بداية مطلعها، فوجب أن

(١) يراجع: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨٨، والتفسير الكبير ٦/ ٣٤٩، وبداية المجتهد ١/ ٥٠ ومختصر الخرقي من مسائل الإمام أحمد لأبي القاسم الخرقي تحقيق/ زهير شاويش ص ٢١ ط. المكتب الإسلامي بيروت والمبدع في شرح المقنع لابن مفلح ١/ ٢٦٢ ط. المكتب الإسلامي. وقلائد الدرر في بيان آيات الأحكام بالأثر للشيخ أحمد الجزائري ١/ ٤٩ ط. مؤسسة الوفاء بيروت.

يكون الطهر من الحيض بانقطاع الدم ثم الاغتسال بالماء، وهذا ما يستفاد من صيغة المبالغة في قراءة التشديد.

ولما كان الأصل في القراءات التوافق حملوا قراءة التخفيف علي قراءة التشديد وأكدوا ما ذهبوا إليه بأمرين:

الأول: انقطاع الدم، وذلك لتفسيرهم ﴿ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾ بالتخفيف بمعني: ينقطع عنهن الدم.

الثاني: الاغتسال بالماء، وذلك لتفسيرهم «فإذا تطهرن» بمعني فإذا اغتسلن، فصار المجموع هو الغاية، والغاية لن تتحقق إلا بانقطاع الدم ثم الاغتسال(١).

٢ - وذهب أبو حنيفة ﷺ إلي أن المراد بالطهر انقطاع الدم فإذا انقطع دم الحيض جاز لزوجها أن يطأها قبل الغسل، إلا أنه إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام جاز وطؤها قبل الغسل، وإذا كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتي تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة من غير أن تجد دم الحيض(٢).

---

(١) يراجع: التفسير الكبير ٦/ ٣٤٨ والجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨٩، وروح المعاني ٢/ ١٢٢، ١٢٣ والنشر ١/ ٢٩، والكشف عن وجوه القراءات ١١/ ٢٩٣ وقلائد الفكر في توجيه القراءات العشر ص ١٣ ط. الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والمهذب للشيرازي١/ ٣٨ ط. دار الفكر وبداية المجتهد ١/٥٨ وتفسير القاسمي المسمىٰ محاسن التأويل ٣/ ٥٦٢ ط. إحياء الكتب العربية.

(٢) يراجع: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٤٧٦، والجامع لأحكام القرآن ٣/٨٨ والكشاف للزمخشري ١/ ٢٦٦ وفتح الغفار لابن نجيم ٢/ ١١٣ط. الحلبي وينظر: القراءات دراسات فيها وتحقيقات للأستاذ/ عبد الغفور محمود مصطفىٰ جعفر ٢/ ٧٧١، ٧٧٢ كلية أصول الدين ـ القاهرة، وبداية المجتهد ١/ ٥٨.

واستدل علي هذا بقوله تعالي: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ علي قراءة التخفيف.

ووجه الدلالة من هذه القراءة:

أن غسل الحائض بعد انقطاع الدم ليس بواجب؛ لأن قوله: «يطهرن» بالتخفيف أظهر في الطهر الذي هو انقطاع الدم منه في التطهير بالماء، ذلك أن انقطاع الدم هو الشرط الوحيد في طهارة المرأة من الحيض عند الجميع ولا خلاف في ذلك، والاغتسال دون انقطاع الدم لا قيمة له، ولا يحقق الطهر، فدل ذلك علي أن الطهر هو الانقطاع، وأن المرأة لا تطهر إلا به فثبت أن الغسل غير واجب وإذا كان فهو من قبيل النظافة(١).

وبذلك نري أن أبا حنيفة فيما ذهب إليه قد استعمل المشدد بمعني المخفف توفيقا بين القراءتين فقد حمل قراءة التشديد علي ما إذا انقطع الدم لأقل من عشرة أيام وقراءة التخفيف علي ما إذا انقطع لعشرة أيام تامة(٢).

وعليه فيرى الأحناف أن القراءتين كآيتين، قالوا: للزوج أن يقرب زوجته أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل عملا بقراءة التخفيف، وفي أقل منه ولا يقربها حتي تغتسل أو يمضي عليها وقت الصلاة عملا بقراءة التشديد، والحمل علي هذا أولي من العكس؛ لأنه حينئذ يجب ترك العمل

(١) يراجع: شرح فتح القدير لابن الهمام الحنفي ١/ ١٤٧ ط. دار إحياء التراث العربي بيروت وتبين الحقائق شرح كنز الدقائق للزلعي الحنفي١/ ٥٨، ٥٩ ط. دار المعرفة بيروت والتفسير الكبير ٦/ ٣٤٩.

(٢) يراجع الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨٩ وحاشية الإكليل علىٰ مدارك التنزيل ١/ ١٥٩، وفتح الغفار لابن نجيم ١/ ١١٣.

بإحداهما لما عرف"[1].

علي حين لم يرتض الإمام الجصاص وهو حنفي المذهب بأن تكون القراءتان بمنزلة آيتين، ولكنه بني مذهبه في رد إحدى القراءتين إلي الأخرى فقال في تقرير مذهبه والاحتجاج له: قوله تعالي: ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ إذا قرئ بالتخفيف، فإنما هو انقطاع الدم لا الاغتسال؛ لأنها لو اغتسلت وهي حائض لم تطهر فلا يحتمل قوله ﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ إلا معني واحدا، وهو انقطاع الدم الذي به يكون الخروج من الحيض، وإذا قرئ بالتشديد احتمل الأمرين: من انقطاع الدم ومن الغسل، فصارت قراءة التخفيف محكمة، وقراءة التشديد متشابهة، وحكم المتشابه أن يحمل علي المحكم ويرد إليه، فيحصل معني القراءتين علي وجه واحد، وظاهرهما يقتضي إباحة الوطء بانقطاع الدم الذي هو خروج من الحيض، وأما قوله: «فإذا تطهرن» فإنه يحتمل ما احتملته قراءة التشديد في قوله: «حتى يطهرن» من المعنيين، فيكون بمنزلة قوله: «ولا تقربوهن حتى يتطهرن فإذا تطهرن فأتوهن» ويكون كلاما سائغا مستقيما، كما تقول لا تعطه حتى يدخل الدار، فإذا دخلها فأعطه، ويكون تأكيداً لحكم الغاية، وإن كان حكمها بخلاف ما قبلها، وإذا كان للاحتمال فيه مساغ علي الوجه الذي ذكرنا، وكان واجبا حمل الغاية علي حقيقتها، فالذي يقتضيه

(١) قال الإمام الزيلعي في شرح " كنز الدقائق " في فقه الحنفية عند قوله " وتوطأ بلا غسل يتصرم لأكثره " المقولة تعالىٰ " حتىٰ يطهرن " بتخفيف الطاء جعل الطهر غاية للحرمة وما بعد الغاية مخالف لما قبلها، ولأن الحيض لا يزيد عن العشرة، فيحكم بطهارتها لمضي العشرة انقطع دمها أو لم ينقطع، ثم قال بعد أن ذكر القراءة الأخرىٰ فتكون قراءة التشديد محمولة علىٰ ما إذا انقطع لأقل من عشرة، والتخفيف علىٰ ما إذا انقطع لعشرة، توفيقًا بين القراءتين. ينظر: تبين الحقائق. مرجع سابق.

ظاهر التلاوة إباحة وطئها بانقطاع الدم الذي تخرج به من الحيض..."[١].

وهكذا ينتصر الجصاص لمذهبه فيجعل قراءة التخفيف محكمة ترد إليها قراءة التشديد؛ لأن هذه عنده متشابهة، فتحمل علي قراءة التخفيف التي لا تحتمل إلا النقاء من الدم، فيكون غشيان الزوجة مشروطا بالنقاء من الدم فقط، وهذا منه تحايل لتوجيه مذهب أبي حنيفة وأصحابه القائل: «إن الحائض إذا انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل، وإن كان انقطاعه قبل العشر لم يجز، حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة»[٢].

وفي موطأ محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة لا تباشر حائض عندنا حتى تحل لها الصلاة أو تجب عليها وهو قول أبي حنيفة[٣].

ولكن هذا الذي نقل عن أبي حنيفة –رحمه الله– استغربه الكيا الهراسى حيث قال بعد ما ذكر ما نقل عن أبي حنيفة ﷺ: "... وهذا قول بعيد وأقل ما فيه إخراج قوله تعالي: ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ عن كونه حقيقة في الاغتسال إذا حمل علي انقطاع الدم علي الأكثر، وحمله علي حقيقته في الاغتسال إذا حمل علي انقطاع الدم علي مادون الأكثر، وذلك بعيد جدا؛ لأن الآية لو كانت متناولة للحالين كان تقدير الكلام «حتى يغتسلن» في آية «ولا يغتسلن» في آية أخري أو قراءة أخري ويكون ذكر المحيض متناولا لهما جميعا، ولا يكون فيه بيان

(١) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ٤٧٦، ٤٧٧.
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨٨، ٨٩، وفتح القدير للشوكاني ١/ ٢٠٠.
(٣) ينظر: الموطأ من رواية محمد بن الحسن الشيبابي تعليق عبد الوهاب عبد اللطيف ص ٥٠ ط. القاهرة.

المقصود، فيكون مجملا غير مفيد للبيان.

وقال: «إذا كانت قراءة التشديد حقيقية في الاغتسال، وقد حملوها الغسل مجوزا فإن حملوا قراءة التشديد علي الغسل لزمهم أن يوقفوا الحل علي الغسل فلا هم عملوا بقراءة التخفيف ولا بقراءة التشديد.

وإن موهوا باعتذارات في وجوب الصلاة فلا أثر لها في إخراج قراءة التشديد عن كونها حقيقية»[(١)].

هذا، وقد عد الكرماني ما قاله الإمام أبو حنيفة «من غرائب التفسير وعجائب التأويل»[(٢)].

وقال عنه الإمام القرطبي: هذا تحكم لا وجه له[(٣)] واستغربه السيوطي[(٤)] جدا[(٥)].

الترجيح:

بعد عرض آراء العلماء حول هذه المسألة أميل إلي قول من قال: إن الطهر لا يكون إلا بالاغتسال؛ وذلك للأخذ بالأحوط، ولما فيه من الجمع بين

---

(١) ينظر: أحكام القرآن للكيا الهراسي الشافعي ١١/ ١٣٩، ١٤٠ ط. دار الكتب العلمية.

(٢) ينظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل لتاج القراء محمود بن حمزة الكرماني ١/ ٢١٣ ط. دار القبلة جدة.

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٨٩.

(٤) السيوطي: هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الشافعي المسند المحقق صاحب المؤلفات الفائقة ولد في سنة ٨٤٩هـ وتوفي ليلة الجمعة تاسع عشر جمادي الأولى سنة ٩١١هـ في منزله بروضة المقياس. ينظر: ترجمته في شذرات الذهب ٨/ ٥١، ٥٢.

(٥) ينظر: الإكليل في استنباط التنزيل ص ٣٦٦ ط. دار الكتب العلمية بيروت.

الطهارة الذاتية الحاصلة بانقطاع الدم، والطهارة المكتسبة الحاصلة بالاغتسال، وأيضا لتذييل الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]؛ حيث أثني الله تعالى عليهم، وهذا الثناء يدل علي أن الطهارة فعل منهم أثني عليهم به وفعلهم هذا هو الاغتسال الذي لهم فيه كسب دون انقطاع الدم الذي لا كسب لهم فيه[١].

والخلاصة أننا إذا أجرينا الاحتباك على هذا النموذج يتضح لنا ما يلي :

أن الاحتباك قد جاء على قراءة : ﴿ يَطْهُرْنَ ﴾ بتخفيف الطاء والهاء ؛ حيث حذف من كل جملة أحد طرفيها ثقة بما ذُكر.

قال السجلماسي (ت : بعد ٧٠٤ هـ) :« وتقديره : (ولا تقربوهن حتى يطهرن ويتطهرن، فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن) ؛ فهو قول مركب من أجزاء أربعة : نسبة (الأول) إلى (الثالث) كنسبة : (الثاني) إلى (الرابع)، وذلك أن قوله :﴿ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ – وهو الأول – مناسب للثالث وهو قوله : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾، وقوله (يتطهرن) – وهو الثاني – مناسب لقوله : (تطهرن) – وهو الرابع – فحُذف الثاني ؛ لدلالة الرابع عليه لأنه مثبت، وحذف من الثالث ما أثبت في الأول، ودلالة السياق قاطعة بهذه المحذوفات ... وبهذا يعتضد القول بالمنع من وطء الحائض إلا بعد الطهر والتطهر معاً »[٢].

---

(١) يراجع: المغني لابن قدامة ١/ ٤٠٩.

(١) المنزع البديع ، للسجلماسي ، (ص : ١٩٧) ، وينظر : البرهان للزركشي ، (٣ / ١٢٩) .

مما سبق يتبين لنا : أن تقدير الجملة (حتى يطهرن من الدم ويتطهرن بالماء ؛ فإذا طهرن وتطهرن فأتوهن [1]، وهذا التقدير دل عليه السياق .

والسر فيه : أن القول بالاحتباك تضمن معاني لطيفة جليلة، منها :

أولاً : إرشاد العقل إلى تدبر الحكمة من تحقق المنع من وطء الحائض، مع المحافظة على جزالة النظم بحذف ما يمكن الاستغناء عنه، وهذا نوع من الإيجاز الدقيق .

ثانياً : كما أن الاحتباك يعضد حكماً شرعياً قال به الجمهور، وهو : عدم جواز إتيان الحائض إلا بعد انقطاع الدم والاغتسال جميعاً ؛ حرصاً على سلامة المسلم الحسية والمعنوية، وموافقة للفطر السامية التي تنفر من الإتيان دون أن تكون الزوجة في أحسن حالتها، وفي هذا كشف عن كثافة المعنى وعمقه، الناشئ عن القول بالاحتباك [2] .

النموذج الثاني :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٥].

ففي قوله : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ ثلاث قراءات :

الأولى : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بغير ألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء على وزن ضَربتَ، وبها قرأ المدنيان والكوفيون .

---

(٢) الإتقان للسيوطي ، (٣ / ٢٠٥) ، وينظر : معترك الأقران ، (١ / ٢٤٣) .

(٣) ينظر : تفسير الرازي ، (٦ / ٤١٩) ، وينظر : البرهان للزركشي ، (٣ / ١٢٩) .

الثانية : ﴿ دَارَسْتَ ﴾ بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء على وزن قَابَلْتَ، وبها قرأ ابن كثير المكي وأبو عمرو .

الثالثة : ﴿ دَرَسَتْ ﴾ بغير ألف بعد الدال وفتح السين وسكون التاء على وزن فَعَلَتْ، وبها قرأ ابن عامر الشامي ويعقوب الحضرمي مخالفاً أصله [١] .

الأثر المترتب على تنوع القراءتين :

دلت القراءة الأولى ﴿ دَرَسْتَ ﴾ على أن أهل الشرك كانوا يقولون للنبيﷺ إن هذا القرآن الذي جئتنا به لم ينزل عليك به وحي من السماء ولكنك درست أي : حفظت وأتقنت بالدرس أخبار الأولين وكتب أهل الكتاب، وذلك كما حكى القرآن الكريم عنهم ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان : ٥]، أي : تكرّر عليها بالدرس ليحفظها.

وأن القراءة الثانية ﴿ دَارَسْتَ ﴾ دلت على أن المشركين كانوا يزعمون بأن رسول الله ﷺ قرأ على اليهود وقرءوا عليه، وجرت بينهم مدارسة ومذاكرة، ويقوي هذا المعنى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ ﴾، وفي التفسير أنهم كانوا يقولون : هو يدارس سلمان وعداساً .

---

(١) ينظر : النشر ، (٢ / ٢٦١) ، والاتحاف ، (٢ / ٢٥) .

وأن القراءة الثالثة ﴿ دَرَسَتْ ﴾ تدل على أنهم قالوا لرسول الله ﷺ أن هذه الأخبار التي تلوتها علينا قديمة قد درست وامّحت ومضت من الدرس الذي هو تعفي الأثر وامّحاء الرسم [1] .

قال الأزهري : من قرأ ﴿ دَرَسَتْ ﴾ ، فمعناه : تقادمت أي هذا الذي تتلوه علينا قد تقادم وتطاول، وهو من قولهم : درس الأثر يدرس درساً [2] .

وعلى كل فلا تنافي بين هذه القراءات فقد قالوا له ﷺ درست كتب الأولين، ودارستهم فيها، ودرسَتْ هذه الأخبار التي تقصها علينا، وبهذا التقت القراءات الثلاث وتآخت المعاني.

مما سبق يتضح لنا : أن وجه الاحتباك، جاء على قراءتي : ﴿ دَارَسْتَ ﴾ بألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء، و﴿ دَرَسْتَ ﴾ بغير ألف بعد الدال وسكون السين وفتح التاء ؛ لأن معنى القراءتين يُشير إلى إثبات ادّعاء الدرس أو المدارسة، وجهلهم هم بذلك ؛ حيث حذف من كل جملة أحد طرفيها ثقة بما ذكر، وإلى ذلك ذهب الإمام البقاعي فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾، أي : ومثل هذا التصريف العظيم، ننقل جميع الآيات من حال إلى حال، سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوى ويعجز القُدَر ؛ لتحير ألباب المارقين وتنطلس أفكار المانعين، علماً منهم بأنهم عجزة عن الإتيان بما يدانيها ؛ فتلزمهم الحجة ؛ ﴿وَلِيَقُولُواْ ﴾ اعتداءاً لا عن ظهر عجزهم : ﴿ دَارَسْتَ ﴾،

---

(٢) ينظر : الكشف (١ / ٤٤٣) ، والموضح (١ / ٤٩١) التفسير الكبير(١٢ / ٥٠٢) والدر المصون (٣ / ١٥١) .

(٣) ينظر : معاني القراءات : (١ / ٣٧٧) .

أي : غيرك من أهل الكتاب، أو غيرهم، أو : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ أنت ؛ حتى انتظم لك هذا الانتظام وتم لك هذا التمام، فيكونون كأنهم قالوا : إنك أتيت به عن علم ونحن جاهلون لا نعلم شيئاً .

والحاصل : أنه أتى به على هذا المنهاج الغريب، والأسلوب العجيب ؛ ليعمى ناس عن بينة ويبصر آخرون، وهم المرادون بقوله : ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ أي : القرآن، ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي : أن المراد من الإبلاغ في البيان : أن يزداد الجهلة به جهلاً، ويهتدي به من كان للعلم أهلاً ؛ فلا يقولون : ﴿ دَارَسْتَ ﴾ أو : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ ؛ بل يقولون : (إنه من عند الله)، فالآية من (الاحتباك) : إثبات ادعاء المدارسة أولاً ؛ يدل على نفيها ثانياً، وإثبات العلم ثانياً ؛ يدل على عدمه أولاً، وهي من معنى قوله تعالى :﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٦][1].

ففي الآية الكريمة (احتباكاً) ؛ سببه تنوع القراءات، وتقدير الجملة : (وليقولوا درست ؛ فهو من عند نفسك)، (بغير علم، أي : ونحن جاهلون لا نعلم) ؛ (فلا يقولوا درست)، (ولنبينه لقوم يعلمون ؛ فيقولوا هو من عند الله) .

ويجوز:(وليقولوا درست)،(بغير علم)؛ (ولنبينه لقوم يعلمون) (فلا يقولون درست) فالمحذوف من الطرف الأول : (بغير العلم) ؛ لدلالة ذكر :﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ في الطرف الثاني، والمحذوف من الطرف الثاني : (لايقولون درست) ؛ لدلالة ذكر :﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ في الطرف الأول .

---

(١) ينظر : نظم الدرر للبقاعي ، (٧ / ٢٢٤) بتصرف .

والسر في هذا الاحتباك : أنه ذكر أبشع ما يلازم الكافرين من الاعتداء على الحق، وهو الجهل، الذي دفعهم إلى القول : (إن هذا القرآن كلام بشر) ؛ لإظهار تمكن عجزهم عن الإتيان بما يدانيه، ثم ذكر أحسن ما لأهل الإيمان من الداعي إلى قبول الحق، وهو : العلم الذي يدلهم إلى وجه الصواب، فقالوا : (إن هذا القرآن من عند الله) ؛ وفي ذلك ترهيب للكافرين، وترغيب لأهل الإيمان، فالعلاقة الرابطة بين المحذوف والمذكور ؛ أسهمت في إيضاح فرط جهلهم، فكأنهم قالوا : (إنك أتيت به عن علم، ونحن جاهلون لا نعلم شيئاً منه) ؛ فيعلم كل موفق أنهم ما رضوه لأنفسهم مع ادعاء الصدق والمنافسة في البعد عن أوصاف الكذب ؛ إلا لفرط الحيرة وتناهي الدهشة، وإعواز القادح ؛ فتحقق ازدياد الجهلة بالقرآن جهلاً، واهتدا من كان للعلم أهلاً، فلا يقولون (دارست) بل يقولون : إنه من عند الله [1] .

ويمكننا القول بأن السر في ذكر قوله :﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾، بيان أن ملاحدة الجاهلية – وهم أجلاف العرب في البادية – كانوا في الجملة أصدق تعليلاً لظاهرة الوحي، وأقرب فهماً لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء : (إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه)، بل قالوا : إنه لابد أن يكون قد قرأ وتعلم ودرس ودارس، ولقد صدقوا ؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحف مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة، كرام برررة . والله أعلم بأسرار كتابه.

---

(١٠) المصدر السابق .

الخاتمة

وبعد هذا العرض الموجز لبعض وجوه الإيجاز وأسراره في القراءات، نخلص إلى الحقائق الآتية :

أولاً : إن القراءات القرآنية معين لاينضب، وبحر لا يدرك قراره، وسلسبيل عذب يرتوي منه من أراد الوقوف على هدايات القرآن الكريم ووجوه إعجازه .

ثانياً : أبرزت هذه الدراسة أن تعدد أشكال التغاير ونواحيه بين القراءات المختلفة، من تغاير في الحركات الإعرابية إلى تغاير في التركيب، ليدل ذلك على مرونة النص القرآني، وتقلـيبه على أوجه التراكيـب المختلفة، فيتبع ذلك ثـراء المـعنى وتنوعه وتنويعه، في أوجز عبارة مما يحقق وجهاً من أوجه الإعجاز .

ثالثاً : أن لكل صيغة من الصيغ القرائية دلالة خاصة تتأثر بالزمن، أو بالحدث أو بهما معاً، وكل ذلك قد أسهم في إثراء المعنى، ووجوهه بإيجاز .

وعلى كل فللقراءات أثر بالغ في مختلف العلوم والدراسات قديماً وحديثاً، وستبقى وهي في غاية الأهمية بأثرها، بعكس خيال قائم، أو محتمل بأن لا أثر، أو لا أهمية لأثر، وبذا فلا شك أن القراءات القرآنية تمثل ركناً قوياً جداً من أركان المنهج العلمي عند المسلمين بما حظيت به من وثاقة في النقل، وتوكيد السند، وإيجاز العبارة، فالقراءتان بمنزلة آيتين كما قال علماؤنا .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل كل قارئ، وصلى الله، وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آلـــه وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

فهرس المصادر والمراجع

١. إبراز المعاني من حرز الأماني، لأبي شامة المقدسي، تحقيق : إبراهيم عطوة عوض، طبعة دار الكتب العلمية .

٢. إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للإمام أحمد بن محمد البنا ، تحقيق : أ . د . شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب ، بيروت، الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية .

٣. إعراب القراءات السبع وعللها، للحسين بن أحمد بن خالويه الهمذاني، تحقيق : العثيمين، الناشر : مكتبة الخانجي .

٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي، طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت .

٥. الأحرف السبعة للقرآن، لأبي عمرو الداني، تحقيق:عبد المهيمن طحان، الناشر: دار المنارة ، جدة.

٦. الاختيار في القراءات العشر، لأبي محمد على الحنبلي المعروف بسبط الخياط، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر السبر، طبعة مكتبة الملك فهد الوطنية .

٧. البحر المحيط، للإمام أبي حيان الغرناطي، أبي عبدالله محمد بن يوسف بن حيان، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر .

٨. التبصرة في القراءات السبع، لمكي بن أبي طالب القيسي، حققه : د. محيي الدين رمضان، منشورات معهد المخطوطات العربية المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

٩. التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية للنشر .
١٠. الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١١. التفسير الكبير، للفخر الرازي، طبعة دار الفكر .
١٢. الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه، تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت، ط.الخامسة : ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م.
١٣. الحجة لأبي علي الفارسي، طبعة دار المأمون للتراث .
١٤. الخصائص، لأبي الفتح عثمان ابن جني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
١٥. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، تحقيق : أحمد محمد الخراط، طبعة دار القلم – دمشق، ودار الكتب العلمية – بيروت .
١٦. السبعة، لابن مجاهد، تحقيق : د. شوقي ضيف، طبعة دار المعارف .
١٧. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، تحقيق : علي محمد البجاوي، الناشر : دار الكتاب العربي .
١٨. الصناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق : علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت .
١٩. الفريد في إعراب القرآن المجيد، للمنتجب الهمذاني، تحقيق : محمد حسن النمر، طبعة دار الثقافة – الدوحة – قطر .
٢٠. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، الناشر مكتبة الخانجي .

٢١. القراءات القرآنية، للدكتور : عبد الحليم قابة، طبعة دار الغرب الإسلامي .
٢٢. الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق : محيي الدين رمضان، الناشر : مؤسسة الرسالة .
٢٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام محمود بن عمر الزمخشري، طبعة دار الريان للتراث .
٢٤. الكتاب لسيبويه، تحقيق : عبد السلام هارون، الناشر : مكتبة الخانجي .
٢٥. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .
٢٦. الموضح في وجوه القراءات وعللها، للإمام نصر بن علي محمد أبي عبدالله الشيرازي الفارسي النحوي المعروف بابن أبي مريم، تحقيق : د . عمر حمدان الكبيسي، طبعة الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم – بجدة .
٢٧. المبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر بن مهران، تحقيق : سبيع حمزة حاكمي، طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية .
٢٨. المحتسب في تبيين شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
٢٩. المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .

٣٠. المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر، محمد سالم محيسن، طبعة الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية .
٣١. النشر في القراءات العشر، للحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .
٣٢. بلاغة القرآن في أثار القاضي عبد الجبار، عبد الفتاح لاشين، الناشر : دار الفكر العربي .
٣٣. جامع البيان في تفسير آي القرآن، للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار الجيل – بيروت .
٣٤. جواهر البلاغة، للهاشمي، تحقيق : يوسف الصميلي، المكتبة العصرية – بيروت .
٣٥. حجة القراءات، للإمام الجليل أبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، طبعة مؤسسة الرسالة .
٣٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبدالله الحسيني الآلوسي، تحقيق : علي عبد الباري عطية، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .
٣٧. شرح الهداية في توجيه القراءات، أبو العباس المهدوي، تحقيق : د . حازم حيدر، طبعة مكتبة الرشد – الرياض .
٣٨. صحيح البخاري، تحقيق لجنة من العلماء، طبعة عالم الكتب، بيروت .
٣٩. صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت .
٤٠. فتح القدير، للشوكاني، طبعة دار المعرفة .

٤١ . معاني القرآن، للفراء أبو زكريا يحيى بن زياد، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي، ومحمد علي النجار، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٤٢ . معاني القراءات، لأبي منصور محمد محمد بن أحمد المهدوي الأزهري، وهو مطبوع في مطابع دار المعارف بالقاهرة، بتحقيق، د. عيد مصطفى درويش، ود. عوض بن حمد القوزي .
٤٣ . معترك الأقران في إعجاز القرآن، للسيوطي، دار الكتب العلمية – بيروت.
٤٤ . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسين إبراهيم بن عمر البقاعي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه / عبد الرازق غالب المهدي، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٣
المقدمة	٧
تمهيد	١٠
المبحث الأول: قراءة حرف المضارعة بالياء والتاء	١٥
المبحث الثاني: تغاير القراءات بين تخفيف عين الماضى أو المضارع وتشديدها	١٩
المبحث الثالث: قراءة الفعل بالبناء للفاعل تارة وبالبناء للمفعول تارة أخرى	٢٥
المبحث الرابع: تغاير القراءات بين تاء الخطاب وتاء المتكلم	٢٨
المبحث الخامس : تغاير القراءات بين تاء الخطاب وياء الغيبة	٣٢
المبحث السادس : الإيجاز وعلاقته بالاحتباك وأثر ذلك على القراءات	٣٩
الخاتمة	٥٣
فهرس المصادر والمراجع	٥٤
فهرس الموضوعات	٥٩